

٧ - الدوق دي لاروشفو-كو

للدكتور حسن صادق

إننا نمجّب باحتقار حطام الدنيا والزهد فيها ، ونمد ذلك فضيلة ، ولكن لاروشفو كو يقول عنها : « احتقار الثروة كان عند الفلاسفة رغبة معتبرة في الانتقام لجدارتهم من الحظ ، باحتقار النعم التي حرّمهم منها ، يدفعون به عن أنفسهم ذل الفقر ، كان سبباً ملتوية يسلكونها لا اكتساب الاعتبار الذي حرّمهم منه رقة العيش » (موعظة رقم ٥٤) . ومعنى قوله أن بعض الناس يزهدون في الثروة انتقاماً لجدارتهم من الحظ ، وهذا كبرياء . وبعضهم يتخذون هذا الزهد سلاحاً يدفعون به عن أنفسهم ذل الفقر ، وهذا خداع . وبعضهم يتخذونه مجازاً إلى الاعتبار ، وهذا طموح ؛ أي أن لاروشفو كو يجعل مصدر هذه الماطفة الراقية الكبرياء والخداع والطموح .

الاعتدال فضيلة جميلة ، ولكن لاروشفو كو يقول عنها : « الاعتدال هو خوف الوقوع في جحيم الحسد واتقاء الأزدراء التي يستحقه من تململه السعادة ، إنه تقاخر جديب بقوة العقل ، وعلى الجملة اعتدال الناس في أرق درجات علومهم هو الرغبة في الظهور أكبر من حقيقة مراكزهم وثروتهم » (موعظة رقم ١٨) « الاعتدال لا يستطيع أن يتطلع إلى مناخزة الطموح وإخضاعه ، لأنها لا يجتمعان مطلقاً . هو قنور النفس وكسلها ، كما أن الطموح نشاطها وتوقدها » (موعظة رقم ٢٩٣) . « عند الاعتدال فضيلة ليخفف من غلواء الطموح الذي يملك العطاء ، وليتمزى به صغار الناس عن ضالة ثروتهم وجدارتهم » (موعظة رقم ٣٠٨) . فالخوف والفرور والكبرياء والكسل هي جوهر فضيلة الاعتدال . وهذه الفكرة برهان آخر على أن لاروشفو كو استخلص موعظه من عصره ، لأنها تنطبق على خلق مازاران . كان هذا الوزير يتكاف البشر إذا اختلت مصالحه ليظهر للناس أن المحن لا تروعهم ، وتصنع الرزاة إذا كلل النجاح أعماله ، ليظهر أن الرفاهية لا تستخفه طرباً . ولكن اعتداله الكاذب لم يخف على أحد من معاصريه . أما (فوكيون) ^(١) الاغريقي - مثلاً - فقد اشتهر بالاعتدال التقى وشهد له به أهل أثينا وأيدت حياته شهادتهم . ولما حكم عليه بشرب السم قال لابنه والكأس في يده : « أمرك وأرجو منك ألا تحمل للأثينيين في صدرك غلاً أو ضغينة من أجل موتى » .

جلد الحكماء يستدر إجمابنا ، ولكنه في اعتقاد لاروشفو كو « ليس إلا فن كتمان اضطرابهم في دخليتهم » (موعظة رقم ٢٠) ، أي أن الحكمة ليست شيئاً آخر غير النفاق . ولو قيد لاروشفو كو هذه الفكرة قليلاً ولم يضعها في صيغة عامة لكان أصح . إذ يروى التاريخ أخبار حكماء كان الجلد عندهم غراماً بالفضيلة لا ينال منه

للأفكار (*Histoire naturelle des esprits*) . وذلك أن بين (أفكار) الكتاب نواحي من التشابه وأخرى من الاختلاف ، فواجب النقد أن يفتش عن هذه النواحي حتى يعثر عليها ويميزها ويبين من خلالها خصائص كل كاتب وأوجه التشابه والاختلاف في الأفكار بينه وبين غيره من الكتاب الذين يكونون معه أسرة فكرية واحدة . وقد لجأ سانت بوف لتحقيق ذلك إلى طريقة الطبيعيين *Naturalistes* باستخدام ما يسمى *Morographie* أي ترجمة حياة الكاتب تحت ضوء الملاحظة الصادقة والتحليل الدقيق وذلك للوصول إلى أغوار فكره ، واكتشاف (الفروق العظيمة الطبيعية) - كما يقول سانت بوف - بين العقول المختلفة .

ولقد تضمنت مجموعته المaldات *Causeries du lundi* و *Nouveaux lundis* هذه التراجم الفكرية الفاتحة التي تعتبر بما احتوتها من الأفكار النيرة ، والدوق السليم ، خير نموذج لفن النقد الحديث .

على كامل

(١) ٤٠٠ - ٣١٧ ق م ، ولد في أثينا وشب على الفضائل حتى أصبح مثلاً لها ، ونبغ في الخطابة وفي فنون الحرب والسياسة . واكتسب بأعماله وملكاته وفضائله احترام قومه وتقديرهم ، وأقامه النظاميون في أثينا رئيساً عليهم وهو في صرخ صباه . وكان يصحح للشعب في إخلاص تام ويخبر له بما يستحق من صراحة الرواق بصفاء نية . وكان ديموستين الخطيب المعروف يربح جانبه وبسببه (هادم خطي) . وفي أول أمره أعوانه جر عليه الاعتدال في السياسة غضب الشعب ، فحكم عليه بجرم السم . ومات وهو يومئذٍ وله بأن ينسى ظلم الأثينيين له . ثم عرف الشعب قدره بعد موته فأظم له تمثالاً

خوف أو أمل . ولنضرب مثلاً : سقراط الحكيم الذي جلس في سجنه قبيل إنفاذ حكم الموت فيه يحدث أصحابه عن موضوعات فلسفية هامة ، وهو أشد ما يكون هدوءاً واطمئناناً (راجع فيدون لأفلاطون) . وكيف نعرف أن الهدوء الظاهر يخفي اضطراباً باطنياً ؟ إنه في هذه الحالة يتم عن نفسه مهما حاول المضطرب إخفاؤه . ومثل هذا الانسان لا يسمى حكيماً . وإذا لم يبد لنا أثر من آثار الاضطراب ، فليس من حقنا الجزم بوجوده .

وماذا يقول لاروشفوكو عن فضيلة العدل ؟ « حب العدل ليس عند كثرة الناس إلا الخوف من وقوع ظلم عليهم » (موعظة رقم ٧٨) . وهو لم يميز العدل الذي يصدر عن إيهام نفساني وما يسمى صرخة الضمير وينتج الأعمال الكريمة ، من العدل الذي يصدر عن التفكير والروية وينتج القانون الذي يمنع أعمال الظلم من الوقوع .

ثم يقول عن الطيبة : « الانسان العاجز عن أن يكون شريراً ، لا تستحق طيبته اللديح ، والطيبة في هذه الحالة — أي حالة العجز عن فعل الشر — ليست في الأغلب إلا خمولاً أو ضعف إرادة » (موعظة رقم ٢٣٧) . وهذه الفكرة قد نخلق للملكة أن دوريش ونذكر عقب الطيبة قوله عن الفضيلة التي تمت اليها بصفة كبيرة ، وهي الشفقة : « الشفقة في الأغلب شعور بالآمنا في آلام الغير . إنها تبصر ما هو في عواقب المحن التي قد تصيبنا . إننا تقدم الموت للغير لنضمن موته في ظروف مماثلة لظروفه . وهذه الخدمات التي نسلها اليه هي في الواقع معروف نسيه الى أنفسنا مقدماً » (موعظة رقم ٢٦٤) . وهذه الفكرة لا تدعو الى العجب بعد الذي ذكره عن الشفقة في مرض حديثه عن نفسه . وقوله « في الأغلب » يدل على إيمانه بوجود الشفقة النقية التي تنفجر من القلب وتسبق كل تفكير وتأمل ، وتنتج الخير من تلقاء نفسها ، وفي بعض الأحيان على الرغم مما تتطلبه للمصلحة الذاتية . وهذه العاطفة أرق ما يكون للإنسانية لأنها بلسم البائسين ، تربط القوى بالضعيف ، والمحدود بالمحدود ، ولئن يصيبها العفاء مادام على الأرض بشر .

وتأتي عقب الشفقة فضيلة الشكر على المروف ، فيقول عنها :

« شكر الكثرة من الناس ليس إلا رغبة خفية في الحصول على معروف أكبر من الذي حصلوا عليه » (موعظة رقم ٢٩٨) . ومن الطيبة والشفقة للتباعدة والشكر تنتج الصداقة : « إننا لا نستطيع أن نحب شيئاً لا تربطنا به آصرة ، ولا تتبع غير ذوقنا ولذتنا لما نفضل أصدقاءنا على أنفسنا . وهذا التفضيل فقط هو الذي يجعل الصداقة حقاً كاملة » (موعظة رقم ٨١) ، أي أننا ننسى مصلحتنا الذاتية في سبيل أصدقائنا ونجد في هذا النسيان لذة . وهو يذكر هذه الكلمة للخط من قيمة هذه العاطفة ، ولكنها لذة فيها نبيل وبطولة .

ولم يلبث أن أنكر وجود الصداقة التي توهب ولا تباع ، فقال : « الصلح مع أعدائنا ليس إلا رغبة في إصلاح حالنا ، واللئالي الناشئ من عناء الحرب ، والخوف من وقوع حادث سيء » (موعظة رقم ٨٢) . وهذه الفكرة مأثها الحرب الأهلية التي سبق الكلام عنها . فان لاروشفوكو الذي دفتته مصلحته الذاتية الى الاشتراك في هذه الحرب ، رغب في الصلح بسد أن جرح رأسه وهلك زرعه ودمر قصره ، خشية أن تصيبه ملات أخرى . وكانت للملكة آن دوريش أثناء هذه الحرب لا تمتن بمن يلتفون حولها لأنها لم ترض طموحهم ، وتوجس منهم خيفة كما يدل على ذلك قولها : « متمناى أن يبقى الليل في مجثمه أبداً لأنى لا أرى في النهار إلا أناساً يدأبون على خيانتى » . فالبلاط والتأثرون لم يلبأوا الى الصلح إلا فراراً من اللئالي الناشئ من عناء الحرب ، وخوفاً من وقوع حوادث أليمه ، ورغبة في إصلاح ظلمهم . ثم قال في موضع آخر : « إن ما يسميه الناس صداقة ليست إلا شركة ، أو إدارة ومدير مصالح ذاتية متبادلة ، أو تبادل ضروب امروف . وهي على الجملة ليست إلا تجارة يتطلع حب اللئالي فيها دائماً الى شيء يربحه » (موعظة رقم ٨٣) . « إننا نتبع أنفسنا في أكثر الأحيان بأننا نحب من هم أكثر منا قوة وأشد بأساً . وفي الحق إن النعمة هي فقط التي تنتج صداقتنا ؛ ونحنهم هذه الصداقة ابتغاء خير نروم الحصول عليه منهم ، لا في سبيل خير نريد أن نهديه اليهم » (موعظة رقم ٨٥) .

تسمية البحث في المدد الاقدام صبر صابره